سرد

تكلّمنا وتكلّم ثم صمتنا جميعاً

تلك الرحلة إلى تدمر

كلّ ما اذكره عن سجن تدمر العسكري هو اللون الاصفر. كل شيء كان اصفر: الكثبان الرملية الممتدّة على طول النظر في البادية السورية، آثار تدمر، اسنان الحرس، الحساء، جدران السجن، إطارات صوَر الرئيس المعلّقة في كل مكان، الهواء الاصفر، الشمس والرائحة النتنة

الفوز طنجور

كانت جدّتي منهمكةً بتجهيز الكرتونة التي أحضرها جدّي من بقّالة أبو علي جوهر. جلس جدّي على كرسي القشّ الصغير في باحة الدار يراقب، ويلفّ سيجارته ويغمغم. وحدي كنت أعرف ما يقوله؛ كان يشتم!

وضعت جدّتي كل ما يلزم: علب السردين الصفراء، أقراص الجبنة البيضاء المملّحة، عُلَب المتّة، وكيس نايلون فيه أوقيةُ قهوة، خبّأته منذ أكثر من خمسة أشهر في خزانة ملابسها، بسبب ثمنها المرتفع، أيّام الثمانينيات الكئيبة. ثمّة وشمٌ أزرق باهت كان يلوح على يدها، وهي تضع في الزاوية عليتي دخان حمراوين قصيرتين، وتدسّ منديلاً قماشياً أخرجته من صدرها.

«روح يا ستّي قلها لأمّك إذا بدها تبعت شي، لسّه في محل»، قالت جدّتي ذلك من دون أن تنظر نحوي. وقبل أن أسمع آخر كلمة ركضتُ مثل سهم. قطعتُ شارعاً وتلّة رمل، وشجرتين، وبركة ماء، ووصلتُ إلى ببتنا.

«أمّي، بتقلك ستّي لسّه الكرتونة فاضية»، قلتُ لها وأنا التقطُ أنفاسي. مالت أمّي برأسها من المطبخ كقرص عبّاد الشمس، وأومأت لي أنْ تعال. «خود هدول». أخذتُ من يدها الكيس الورقيّ كمَن يخطف برتقالة من غزية، وركضتُ إلى بيت جدّي في الطريق القصيرة توقّفتُ للحظة، شممتُ الرائحة، «يا لله، كاتو اسفنجي!». هذه الرائحة كانت أقوى من كلّ عطور «شانيل»، و«أرماني»، و«هوغو بوس» التي نثرتها على بدني في السنوات اللاحقة. كيف لي أن أقاوم؟ أصمد أمام كيلو لحمة مشوية، أمام جمال ابنة الجيران التي تنظر إليّ بخبرة في كل مرّة أمرُّ أمام بيتها، وأنا أدحرج برجلي كرة قدم. سددتُ أنفي بيدي اليمنى، وحملتُ باليسرى قالب الحلوى وأكملتُ الطريق.

وضعت جدّتي قالب الحلوى فوق كلّ الأشياء، وأغلقت الكرتونة، بل بالغت بحزمها وشدّها بما أوتيتْ من قوّة، وهي تنظر إليّ تلك النظرة التي توحي بعدم الثقة. «يا ستّي، هدول حرامية!»، نامت شمس، وتبعثر ليلٌ صيفيّ على عتبات بيوت البلدة، ورأى قمر آب هشاشة حلم الأطفال، ثم هربَ مسرعاً، بعد أن تشاجر عاشقان وبلغ صوتاهما آخر سماء. وصل الباص الصغير في الخامسة فجراً، يقوده رجل أربعينيّ بلحيةٍ سوداء وشاربين كثّين وحاجبين عريضين ملتصقين. كان لا ينقطع عن التدخين والتأفف. صعدتُ أنا وأمي وأختي إلى الباص، ولوّحنا كثيراً من وراء الزجاج الكالح لأبي، الذي ظلّ واقفاً أمام باب البيت يدخّن ويراقبنا نغادر الحارة. لوّحتُ بيديّ لأبي كثيراً، إلى أن أصبح صغيراً جداً. توقّف الباص بعد دقيقتين وصعدت جدّتي وجدّي، وخالي الأصغر، ثم زوجة خالي الأكبر وابنها الرضيع، ثم ركبتْ عائلةٌ أخرى لا أعرفها، من حارة مجاورة، وامتلأ الباص بالناس ودخان السجائر الوطنيّة، وأغاني فيروز، والشتائم، والصلوات، والأدعية، والنذور. فركتُ عينيّ حتّى احمرّتا. قاومتُ النوم. لم أتكلّم مع أحد. كان وجهي ملتصقاً بزجاج نافذة الباص، أراقب الطريق، التلال، أعمدة عواميد الكهرباء، وأتأكّد من أن الأرض كروية، لأنها تدور وراسي يدور. يغالبني النعاس، يهوي رأسي ويرتطم بالزجاج، فاصحو وأتابع لعبة المراقبة: غيمة، شجرة، حفارةٌ تحفر بئراً في الأرض، حقول واسعة، تلال صفراء، عربات عسكرية، سيّارات شحن، باصات هوب هوب تنقل بشراً آخرين بين مدن وقرى لا أعرف أسماءها، ولكنها مغبرّة ومصفرّة وكالحة. خلال الطريق، أكلت سندويشتي زيت وزعتر، ونصف تفّاحة متبقّية من أحدهم، ثم غمزتني جدّتي: «لاسوك يا ستّي»، قالت همساً، وأعطتني عنقود عنب أصابع العروس مقطوفاً من شجرة بيت جدّي، التي كانت تسقيها بالحنونة، حتّى أمّي كانت قد أخذت غصناً منها وزرعته في حديقة بيتنا وكبُر وتفرّعت منه أغصان أخرى صغيرة، ثم بعد سنوات أصبح لدينا شجرة عنب اسمها ابنة الحنونة.

«وصلنا عالشام؟»، قلت بنفاد صبر.

«لا».

«مطولين؟»

«شوي».

«أربع ساعات ونصف ولم نصل».

«وين الشام؟»

«مرّينا من جنبها».

قلتُ وظلّ فمي مفتوحاً.

«يعني ما رح نشوفها؟»

«لا».

لم أنمْ منذ ثلاث ليالٍ وأنا أحلم بالشام؛ الشوارع والمقاهي والأبنية الشاهقة وبنات المدينة، وأكشاك عصير التوت الشامي، وغزْل البنات، والبرازق، وسوق الحميدية الذي سمعت أنّه أطول من نهر بردى، أكمل الباص طريقه، وداخت الناس من الحرارة والرائحة. استفرغتْ أختي وطفلٌ آخر وداخت جدّتي، ورشّوا عليها الماء.

وصلنا إلى أعلى الهضبة الصفراء البُنيّة المقفرة. توقّف الباص أمام حاجز عسكريّ. أخذوا هُويّات الجميع، فتّشوا الباص، فتّشوا كراتين الأكل، الملابس، عمامة جدّي، شال جدّتي. كلّنا، كباراً وصغاراً، وأكل جنديٌّ يلبس قبّعته الحمراء المائلة، عنقود العنب الذي كان مرميّاً على كرسيّ بجانبي. الباص يبضل هون وانتوا كملوا الطريق للأعلى»، قال العسكريّ المربوع. كان يلبس بوطاً أسود مغبرّاً، بذلته العسكريّة مغبرّة، حتى وجهه المتجهّم مغبرّ. نزلنا جميعاً من الباص نترنّح من تعب الطريق الطويل.

لمحناه من خلف القضبان؛ إنّه خالي، بل شبَحُ خالي

حلمت بسوق الحميدية الذي سمعت أنّه أطول من نهر بردى

التصقت ملابسنا بأجسادنا بسبب العرق. الشمس فوقنا، العسكر وراءنا وتلك التلّة تقف أمامنا مثل كرش مشينا في مجموعات صغيرة أكثر من كيلومترين إلى أعلى التلّة في عزّ الظهر.

«عرفنا وطلعت ريحتنا»، قالت أمّي.

«بيفرجها الله»، قالت جدّتي.

«بسرعة شوي»، قال خالي وهو يحمل كرتونة الأكل البُنّيّة التي كُتب عليها «أصيل، سمن نباتي».

«بلعن أبو هالحِجّية عرصة»، غمغم جدي وهو يمشي بجانبي بخطى متمهّلة.

وصلنا إلى بوّابة حديدية كبيرة لبناء ضخم يشبه القلعة، وبجانبها غرفة صغيرة، فيها حارسان، جنديّان مدجّجان بالأسلحة، ذوا وجهين صحراويّين.

«الهويّات يا شباب»، قال أحدهما، وهو طويل ونحيف، وله شاربان كالزّغب.

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

بطاقة

مُخرجٌ سينمائي سوري من مواليد 1975. درس الاخراج السينمائي في مولدوفا، واخرج العديد من الاشرطة الروائية القصيرة؛ من بينها: «شمس صغيرة»، الذي نال «جائزة التانيت البرونزي» في «مهرجان قرطاج السينمائي» بتونس عام 2008، و«نهاية باللون احمر». وفي سجلّه العديد من الافلام التسجيلية؛ من بينها: «ذاكرة باللون الخاكي»، و«دمشق: سيمفونية مدينة»، و«خارج اسوار المدينة»، و«حجر اسود» و«اوردة خشب».

طريق تدمر، 1989 (Getty)

إطلالة

ازدواج العيد والأضحية

14 شباط اللبناني

نسبة العيد إلى يوم إعدام القدّيس تتطلّب أضحية، وزمن كورونا عامر بالاضحيات، لذا يبدو التعييد به الآن عودة الى المعنى الاصلي للعيد

عباس بيضون

عيد العشّاق، 14 شباط/ فبراير لم يختلف عن غيره من المناسبات المماثلة في زمن كورونا، مثلها كان عيداً بإصرار الناس على الحياة، ولم يكن عيداً بسبب الخوف على الحياة. كان الاعتراف به، لفرط ما هو إرادي ومصنوع، أقرب إلى الإنكار. كان أشبه بحفل وداع أو سكرة وداع. مثل بقيّة الأعياد في زمن كورونا، بدا جنوناً وصراعاً مع القدر. مع ذلك لم يكن العيد في منشئه شيئاً آخر، فهو، أوّل مرّة، لم يكن سوى ذكرى قطع رأس القدّيس فالنتاين عام 237 م، التي صادفت يوم مهرجان لوبركاليا الذي يحتفل الرومان فيه بالخصب ومَقدم الربيع.

في القرن الخامس حوّل البابا هذا اليوم إلى عيد القدّيس فالنتاين، الذي يُقال إنّ الإمبراطور كلوديوس أعدمه عقاباً على معارضته لقرار الإمبراطور بمنع زواج الشبّان ليتسنّى لهم الوقت لأداء الخدمة العسكرية. في المسألة إذن، كما تناهت إلينا، شبهة زواج، ممّا يمتّ لما يعنيه العيد من الحب والإخصاب. أمّا صلته بالقدّيس نفسه فهي غامضة، ولو تردّدت حكاية عن حب القدّيس لطفلة هي ابنة سجّانه، والتي كانت تزوره في سجنه، وتستطرد الحكاية فتنسب للقدّيس أنه ترك رسالة لها قبل إعدامه وقّعها «فالنتاينك».

أيّاً كان الأمر فإن العيد، كما رُوي عنه، ينطلق من مأساة حب، أو من مأساة بالمطلق. يمكننا أن نفهم من ذلك أن ازدواج الحب والموت في عيد العشّاق لا يبعد كثيراً، عمّا هي الحال، في زمن كورونا. الأرجح أنه يمرّ بهذا الوقت بكل ثقل المأساة التي أطلقته. الأمر بالنسبة للبنانيين لا يقلّ فداحة، فقد صادف أنّ نهار العيد هو اليوم الذي اغتيل فيه رئيس الوزراء رفيق الحريري، في انفجار لا يزال دويّه يتردّد في الذاكرة وفي التاريخ الراهن للبنان. نسبة العيد إلى يوم إعدام القدّيس تتطلّب قرباناً وأضحية، كأنها في ذلك اليوم رفيق الحريري، وزمن كورونا، بدون شك، عامر بالأضحيات، لذا يبدو التعييد بيوم فالنتاين الآن عودةً إلى المنبت والمعنى الأصلي للعيد.

يوم 14 شباط في تاريخنا لا يتوقّف عند اغتيال الحريري. له سابقة في ماسينا، وربما ملاهينا، التاريخية. هذا اليوم تواترت المكاسب والخسائر في تاريخه منذ القرن الخامس، فهو اليوم الذي أعلن فيه اختراع الهاتف الذي طبع عصراً بكامله، وأنجزت فيه أوّل غواصة تعمل بالديزل. لكنّه، في المقابل يوم زلزال الاسكا الكبير. أمّا بالنسبة لنا، فثمة تواريخ له، لم يتميّز حتى الآن في أي خانة توضع، في الملاهي أو الماسي، في التاريخ أو في الهامش.

في هذا اليوم على سبيل المثال، أعلن الاتحاد الهاشمي بين العراق والأردن، لم يترك الاتحاد في التاريخ سوى هذا الخبر، فهو لم يكن سوى ردّ إعلامي على وحدة مصر وسورية بقيادة جمال عبد الناصر، لكنه أيضاً يوم فتوى الخميني 1986 بإعدام سلمان رشدي جزاء روايته «آيات شيطانية»، هذه الفتوى الذي الجأت رشدي إلى التخفّي، وقفت عند هذا الحد. هناك أيضاً في هذا اليوم إعدام كان في حينه ذا أثر، هو إعدام سلمان يوسف «فهد» مؤسّس الحزب الشيوعي العراقي عام 1946، ولن يكون اغتيال الحريري 2005 سوى إعدام آخر. هكذا يتردّد إعدام القدّيس فالنتاين في تواريخنا. منذ اغتيال الحريري، غدا العيد مناسبة مُليسة في لبنان إلى أبعد حد. واجه اللبنانيون عند ذلك الحين حرجاً تاريخياً، بل هم، ابتداءً من هذا اليوم، شاهدوا تاريخهم يعمل ويتصارع في داخله ويتحوّل إلى دمار تدريجي وانهيار لم يتوقّف عن التفاقم، إلى أن وصل الأمر إلى ما هو فيه الآن من أزمات متلاحقة. يمكننا لذلك أن نعتبر أن 14 شباط بداية تاريخ كامل لبلد كلبنان. منذ ذلك الحين واللبنانيون يتلقّون إرث ذلك اليوم. استتبع اغتيال الحريري إعدامات لا يبدو أنها انتهت، ولا يزال يتملّكنا الخوف من أن تتجدّد، فهناك دوماً نذير بذلك. ليس الخطر هو فحسب موجة إعدامات ثانية وثالثة كان آخرها اغتيال لقمان سليم. ليست الأضحية هي الحريري وحده، ثمّة ما يُنذر بأن تكون هذه المرّة لبنان كلّه. إذ يبدو أن لا مفرّ من التصدّع والانقسام، ولم يعُد هناك مجالٌ بعد للتصحيح. ما هو في الشارع، مهما كانت قوّته وحجمه، لن يستطيع أن يواجه قدراً كاملاً لا مردّ له، ولا قدرة على ردعه.

(شاعر وروائي من لبنان)

كان عيداً بإصرار الناس على الحياة، ولم يكن كذلك بسبب الخوف عليها

تمثال لرفيق الحريري في بيروت، 2008 (Getty)

متابعة

مهرجان الموسيقى الروحية معركة لإثبات نسب

صراعٌ في فاس

على بُعد قرابة اربعة اشهر من الموعد المفترَض لدورته الجديدة، نشبت خلافاتٌ بين جمعيّتين تدّعي كلٌّ منهما احقيّتها بتنظيم المهرجان

الرباط ـ ليبية شكري

منذ انطلاقه في مدينة فاس بالمغرب عام 1994، اتّخذ «مهرجان الموسيقى الروحية» من فكرة التسامُح وجمع ثقافات الشعوب عنواناً عريضاً لدوراته التي ظلّت تُقام بانتظام طيلة خمسة وعشرين عاماً، قبل أن تُلغى دورة 2020 ضمن ما ألغي من مهرجانات بسبب وباء كورونا المستجِد.

غير أنّ فكرتَي «التسامُح» و«الجمع» تبدوان غائبتَين عن دورة 2021، التي قد تنعقد في حزيران/ يونيو المقبل إذا ما انحسر الوباء؛ ذلك أنّ المهرجان المغربي الأبرز في مجال الموسيقى الروحية يجدّ نفسه، وهو على بُعد أربعة أشهر من الموعد المفترَض لدورته الجديدة، في خضمّ خلافاتٍ نشبت بين جمعيّتَين تدّعي كلٌّ منهما أحقيّتها بتنظيمه. بدأت الحكاية في آخر أيام السنة الماضية؛ حين أعلنت «جمعية فاس سايس» عن تنظيم الدورة السادسة والعشرين من المهرجان بين الرابع والثاني عشر من حزيران/ يونيو المقبل تحت شعار «أندلسيات جديدة»، واعدةً بتقديم «برنامج بمستوى عالٍ، ويتميّز بالتجديد». وقدّمت الجمعية، في مؤتمر صحافي، تفاصيلَ عن برنامج الدورة؛ من بين ما ورد فيه حضور فرق صوفية من الولايات المتّحدة وسراييفو، وتنظيم مُنتدىً حول موضوع «ميثاق إبراهيم: بيانٌ من أجل إنسانية روحية» (ليس واضحاً محتوى الندوة، ولا سيما أن الإرث الإبراهيمي أصبح ذريعة وستارة لتمرير التطبيع مع الكيان الصهيوني).

بدا الأمرُ، في البداية، مجرّد خبر صحافيّ عاديّ لم تتأخّر وسائل الإعلام المحلّية، بما فيها وكالة الأنباء الرسمية، عن نشره، لكنّ جهةً أخرى هي «جمعية روح فاس» ستُضيف بعد وقتٍ وجيز شيئاً من الإثارة إلى الخبر؛ إذ أصدرت بياناً عبّرت فيه عمّا أسمته اندهاشها من إعلان «طرفٍ ثالث» عن تنظيم الدورة المقبلة من المهرجان.

واعتبرت «روح فاس» أنّها الجهة الوحيدة المنظّمة للمهرجان منذ عشرين عاماً، واصفةً إعلان «فاس سايس» بـ«غير الشرعي» و«غير المسؤول»، مُضيفةً أنّها لن تُعلن عن أيّ موعد لتنظيم الدورة الجديدة قبل أن تُصادق عليه السلطات المختصّة «امتثالاً للقواعد الصحية». كما لوّحت الجمعية باتّخاذ «جميع الخطوات القانونية للحفاظ على هذا التراث غير المادي... ولحماية المهرجان من جميع المناورات».

تواصلت «حربُ البيانات» ببيان ردّت فيه «فاس سايس» على ما أسمته بـ«المغالطات» التي تضمّنها بيان غريمها «روح فاس». إحدى تلك المغالطات، بحسب البيان الجديد، هو «الادّعاء بأنها تُشرف على تنظيم التظاهرة منذ عشرين سنة، في حين أنّ المؤسّسة ذاتها لم ترَ النور إلّا في سنة 2006». واعتبر البيان أنّ «جمعية فاس سايس هي المؤسّسة للمهرجان، والسبّاقة لتنظيمه من 1994 إلى 2005، وهي الوحيدة الحاصلة على شهادة تسجيل المِلكية».

سبق للقضاء أن تابع عددا من منظّمي التظاهرة بتهمة اختلاس اموال

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

من «القصر الملكي» في فاس (Getty)

فعاليات

في 20 شباط/ فبراير الجاري، يُقام عرضان موسيقيان ضمن تظاهرة «كلاسيكيات النجمة الزهراء» في سيدي بوسعيد بالقرب من تونس العاصمة؛ الأول بعنوان **بالكنتو** يقدّمه الثنائي: **يسرى عبيد** (غناء) و **مهدي طرابلسي** (بيانو)، يليه عرض **سحر الأوبرا لأميرة الوبيري**، وتعود فيه إلى موسيقى عصر الباروك.

ضمن برنامج **استكشاف المجموعات والاعمال الفنّية عن قُرب** الذي ينظّمه «المتحف الفلسطيني» (بير زيت) عبر منصّات التواصل الاجتماعي، يتحدّث يوم الاربعاء المقبل **المقتني جورج الاعمى** عن اعمال الفنانة التشكيلية الفلسطينية فاطمة المحبّ (1927 - 2006/ العمل) التي تميّزت تجربتها بحضور المشاهد الطبيعية القريبة من القدس، كذلك حضرت رسوماتها في الكتب المدرسية.

تنظّم «ارشيفات هنري بوانكاريه» (فرنسا)، يوم الاربعاء المقبل محاضرة عبر الوسائط الافتراضية بعنوان **الداخلية البراغماتية**، يلقيها الباحث البلجيكي **غريغوري بوشر** الذي يعرض اهم افكار التيار الابستمولوجي الذي تحمل المحاضرة اسمه، ويدافع عن كون تطوّر العلوم يستند الى عنصر التراكم الداخلي لكل مجال معرفي.

حتى نهاية الشهر الجاري، يتواصل في متحف **فريدير بوردا** في بادن ـ بادن الالمانية معرض لاعمال الفنان الفرنسي **بيير سولاج** (1919، الصورة). المعرض اشبه باستعادة موسّعة لمشوار الفنان الفرنسي؛ حيث تمسح اللوحات المعروضة مدة زمنية طويلة، من 1946 الى 2019، وتظهر فيها تحوّلات خياراته الإبداعية عبر العقود.